بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف

عزيزى القارئ . . فى إطار السياسة التى تتبعها سلسلة (الذخائر) بالحرص على تنويع ماتقدمه إليك من كنوز تراثنا . . كان تقديمنا لهذا الكتاب وهو معجم (أساس البلاغة) للزمخشرى (أبو القاسم محمود بن عمر ٤٦٧ - ٥٣٨ هـ) ، لقد سبق للسلسلة أن قدمت كتبا فى المعارف العامة ، وفى تاريخ الأدب والتاريخ العام ، وتاريخ بعض فئات المجتمع ، وفلسفات الفرق ، وبعض كنوز الموروث الشعبى ، وتراجم الشعراء وبعض دواوينهم ، وغير هذه من الكتب فى مجالات التراث المتنوعة .

وهاهى ذى سلسلة الذخائر تؤثرك - هذه المرة - بمعجم لغوىّ له أهميته الخاصّة بين معاجم العربيّة ، وهو أساس البلاغة ، ونقدمه لك مصوّرًا عن طبعته الثانية بمركز تحقيق التراث .

الهدف الأساسىّ المتّصل للمعاجم العامة للغة هو رصد الحصيلة اللغويّة وضبطها ؛ خشيةَ الضّياع أو التفلّت أو تسرّب الخطأ إليها أو أن يتسلّل إليها ماهو غريب عنها . وليس بوسعنا هنا أن نسجّل البدايات الساذجة فى هذا السبيل ، كما أنه ليس بوسعنا أن نتحدّث عن صور خاصّة من التأليف فى اللغة تهدف إلى جمع شرائح محدّدة منها ، مثل كتب الغريب فى القرآن والحديث ، أو لغات القبائل أو المعرّب . . إلخ . يكفى هنا أن نعمل على وضع (أساس البلاغة) فى موضعه على خريطة التأليف المعجمى عند العرب .

وبعيدًا عن تلك الصور من التأليف المعجمى - أو لنقل : تلك الصور من محاولات رَصْد الحصيلة اللغويّة - نجد أن هناك عددًا من طرق تصنيف هذه الحصيلة فى إطار التأليف المعجمى الفعلى .

من هذه الطرق **طريقة الخليل بن أحمد** (ت ١٧٥ هـ) فى معجمه الشهير باسم (العيْن) ، وهى الطريقة التى تابعه فيها آخرون منهم : أبو منصور الأزهرى (ت ٣٧٠ هـ) فى (تهذيب اللغة) ، ومنهم ابن سيده (ت ٤٥٨ هـ) فى (المحكم) ، وفى هذه المعاجم ترتّب المادة اللغوية على حروف الهجاء بحسب مخارجها ، وهى طريقة كان فيها من الصعوبة القدر الكبير .

ومن طرق التأليف المعجمى أيضا الطريقة التى جمعت بين الترتيب الألف بائى والأبنية مع التدرّج من أول الكلمة إلى آخرها ، وعلى رأس أصحاب هذه الطريقة ابنُ دريد (ت ٣٢١ هـ) فى كتاب (الجمهرة) ، وابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) فى كتابيه : (مقاييس اللغة) و (مجمل اللغة) .

ثم كانت طريقة الترتيب بتقسيم المعجم إلى أبواب وفقا للحرف الأخير من الكلمة وتقسيم كلّ باب إلى فصول بحسب الحرف الأول ، ويذكر فى هذا الصدد معجم (تاج اللغة وصِحاح العربية) لأبى نصر إسماعيل بن حماد الجوهرى (ت ٤٠٠ هـ) ، و (لسان العرب) لابن منظور (ت ٧١١ هـ) ، و (القاموس المحيط) للفيروزآبادى (ت ٨١٦ هـ) [يراجع كتاب (المعجم العربى) للدكتور حسين نصار] .

هكذا رأينا ثلاث مدارس ، أو ثلاث طرق فى ترتيب المادة اللغوية : الترتيب على حسب مخارج الحروف ، والترتيب على حسب أبنية الكلمات ، والترتيب على حسب أواخرها .

ويلوح لى أن هذه الطرق الثلاث تتدّرج فى السُّهولة ، أعنى سهولة الكشف عن الكلمات فى المعجم ، وأتصوّر أن طريقة الأبنية أسهل من طريقة المخارج ، وأن الترتيب بحسب الأواخر أسهل من الترتيب بحسب الأبنية . فإذا علمنا أن الزمخشرى قد اختار ترتيب مداخله بحسب أوائل حروف المادة الأصلية ، أدركنا كيف جاءت طريقته ملبيةً لحاجة الباحث عن المادة اللغوّية إلى العثور عليها بأيسر قدر من

الجهد ، ولا أدلّ على ذلك من أن كثيرا من المعاجم التى ظهرت منذ بدايات النهضة تسير كلها على طريقة الترتيب بحسب أوائل الحروف مثل (محيط المحيط) ، و (قطر المحيط) لبطرس البستانى (ت ١٣٠١ هـ - ١٨٨٣ م) ثم معاجم مجمع اللغة العربيّة بالقاهرة : الوجيز ، والوسيط ، والكبير (الذى لم يتم حتى الآن) .

لم يذكر الزمخشرى أنه سُبِقَ إلى طريقته فى الترتيب هذه ، ولكنه يعلن اعتزازه بسهولتها وشهرتها ، يقول : « وقد رُتّب الكتابُ على أشهر ترتيبٍ مُتَداوَلاً وأسهلِه متناوَلاً ، يهجُم فيه الطالبُ على طَلِبَتِهِ موضوعةً على طَرَفِ الثُّمام وحبل الذّراع [أى يجد بغيته قريبةً منه جدًا] من غير أن يحتاج فى التنقير عنها إلى الإيجاف والإيضاع [أى لايحتاج إلى التعب والسَّعْى بعيدًا] ، وإلى النظر فيما لايُوصل إلاّ بإعمال الفكر إليه ، وفيما دقّق النظرَ فيه الخليلُ وسيبويْه » [مقدمة الزمخشرى لمعجمه] .

وفى العبارة الأخيرة ما لعلّه يشير إلى صعوبة طريقة الترتيب على حسب المخارج التى افتتحها الخليل ، أما فى قوله إنه رتّب كتابه « على أشهر ترتيبٍ متداولاً وأسهله متناوَلاً » ففيه ما يؤكّد إدراكه لسهولة الترتيب على حسب الأوائل ، وما يشير إلى وجود محاولاتٍ سابقة فى الترتيب بهذه الطريقة .

ونحن نذكر أنّ اللغوىّ الكوفىّ أبا عمرو الشيبانى (ت ٢٠٥ أو ٢٠٦ أو ٢١٣هـ) قد وضع معجما بعنوان (كتاب الجيم) رتّب كلماته بحسب الأوائل ، وإن كان لايخلو من اضطراب غير قليل فيما يتّصل بتتابع المواد ، كما نذكر أن الذين اعتمدوا نظام الأبنية ، قد اعتمدوا ترتيبَ أبنيتهم على حسب أوائل حروف هذه الأبنية ، وكأن الزمخشرى وهو يُدِلّ بسهولة ترتيب كتابه ، يشير إلى تخلصه من الاضطراب الداخلى الذى تخلّل كتاب الجيم ، ومن الصعوبة التى قد يمثلها الجمع بين مراعاة الأبنية مع أحرف الهجاء فى معاجم الأبنية

الحديث عن ميزات (أساس البلاغة) كثير ، وأوضح ماذُكِر منها ، أنه معجم سياقى وأنه معنىّ بالتفرقة بين الاستعمالات الحقيقية والاستعمالات المجازيّة

للكلمات . ويعتزّ مؤرخو البلاغة العربية بورود الاسمين الاصطلاحيين لعلمى البلاغة الأساسيين - وهما (علم المعانى) و (علم البيان) - على لسان الزمخشرى فى تقديم كتابه .

أما الزمخشرىّ نفسه فيذكر من خصائص كتابه :

- تخيّرُ ما وقع فى عبارات المبدعين ، وانطوى تحت استعمالات المُفلِقين ؛ أو ماجاز وقوعه فيها وانطواؤه تحتها من التراكيب التى تملُح وتحسُن .
- التوقيف على مناهج التركيب والتأليف ، وتعريف مدارج الترتيب والترصيف ، بسوْق الكلماتِ متناسقة لا مرسلةً بددا ، ومتناظمةً لا طرائق قددا ، مع الاستكثار من نوابغ الكلم الهادية إلى مراشد حُرّ المنطق ، الدّالّةِ على ضالّةِ المِنطيق المُفلِق .
- تأسيس قوانين فصل الخطاب والكلام الفصيح بإفراد المجاز عن الحقيقة والكناية عن التصريح .

لن أقف عند مسألة إفراد المجاز عن الحقيقة ، فهذه مسألة يعرف اللغويّون ومن يتتبّع حركة دلالات الكلمات أن النسبيّةَ فيها غالبةٌ على الإطلاق ، وأن مقولتى الحقيقة والمجازية مقولتان نسبيّتان أكثر مما هما مطلقتان . ولكنى أقف عند الخصيصة الثانية وهى إكثاره من سوْق نماذج التراكيب تنْبيها على « مدارج الترتيب والترصيف ، بسوق الكلمات متناسقة . . » لألمَح فى هذه الخصيصة - إلى جانب استمداد هذه النماذج من استعمالات البلغاء ، أى من النماذج الحيّة فعلا ، وهى الخصيصة الأولى ، لألمح فى الخصيصتين معًا مقاومةً من الزمخشرى للاتجاه الذى كان قد بدأ يسود فى تعليم اللغة ، وهو الاقتصار على سوْق القواعد المجرّدة ، دون النماذج الحيّة التى تعزّز هذه القواعد ، وتدعم مهارة المتكلّم ، وكأنه - باصطلاح ابن خلدون - يحرص على أن يكتسب المتكلّم مهارةَ استعمال اللغة أكثر من حرصه على حفظ القواعد ، وهو - أى الاتجاه الأخير - هو الذى باعد بين اللغة ومتكلّميها

وكاد ينتهى بألسنتهم إلى هجرها . وكأن الزمخشرى وقد شعر بخطورة هذه الاتجاه ، خفّ إلى مقاومته بتأليف كتابه (أساس البلاغة) .

أما نحن - فى سلسلة الذخائر - وقد تأكّد لنا أن لغتنا العربيّة تتعرّض لمحنة قاسية ، تقف فيها بين نزائع البقاء وزعازع الفناء ، فقد عمدنا إلى أن ندفع بكتاب الزمخشرى ليكون فى متناول القارئ علّه يجد فيه مايعيد إليه حبّه للغته ، وسعيه للاقتراب منها وإعادة اكتشافها ، ليعيد - من جديد - اكتشافه لنفسه وهُوّيته .

عزيزى القارئ . . يقدّم هذه الطبعة من أساس البلاغة . . **الأستاذ الدكتور محمود فهمى حجازى** الرئيس السابق لتحرير سلسلة الذخائر ، وأستاذ علم اللغة بآداب القاهرة ، وقد تخرّج فى نفس الكلية ثم حصل على الدكتوراه من جامعة ميونخ بألمانيا عام ١٩٦٥ .

شغل الأستاذ الدكتور حجازى عدّة مناصب عامة منها : مستشار وزير التربية والتعليم ١٩٨٥ - ١٩٨٦ ، ورئيس مجلس إدارة دار الكتب والوثائق القومية ، ومدير مركز اللغة العربية بجامعة القاهرة ، ومقرر لجنة ترقيات الأساتذة ، وقد عمل أستاذ زائرا بعدة جامعات عربية وأوربيّة ، وذلك قبل أن يسند إليه تأسيس ورئاسة جامعة نور / مبارك بكازاخستان ، وهو عضو بمجمع اللغة العربية بكلّ من القاهرة ودمشق .

وقد حصل سيادته على عدد من الجوائز الهامة ، منها :

- الجائزة التقديرية لجامعة القاهرة عام ١٩٩٨ .
- جائزة الدولة التقديرية فى الآداب عام ١٩٩٩ .
- وسام الاستحقاق الألمانى عام ١٩٩٧ .

وللأستاذ الدكتور حجازى عديد من المؤلّفات منها :

- المعجم الألمانى العربى
- علم اللغة العربية

- اللغة العربية عبْر القرون
- أصول الفكر العربى الحديث عند الطهطاوى

هذا إلى جانب عشرات البحوث المنشورة فى المجلّات المتخصصة . وقد شارك الأستاذ الدكتور حجازى فى تأسيس عدد من المجلّات اللغوية والثقافية فى مصر وخارجها ، ويسعد سلسلة الذخائر ويشرّفها أن تَفضّل سيادته بتقديم هذه الطبعة من (أساس البلاغة) .

عبد الحكيم راضى